١١ ــ أزواج سيد البشر ﷺ، ورضي الله عنهن

أجمع كُتَّاب السيرة النبوية المطهرة على أن رسول الله ﷺ تزوج إحدى عشرة امرأة، كلهن ثَيِّبات، إلا المبرَّأة المطهرة قدوة العفيفات، «عائشة» الصِّدِّيقة رضي الله عنها فقد كانت البكر الوحيدة، وتلك مَنْقَبَةٌ اختصت بها من دونهن، رضي الله عنهن.

١ ــ السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

أبوها: «خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي» وأمها «فاطمة بنت زائدة»، وهي: «خديجة بنت خويلد» وكانت تدعى «الطاهرة» وهو لقبها في الجاهلية، امرأة ذات حسب ونسب، وشرف ومال، وحائزة لأحسن الخصال، وكانت تبعث في مالها بعض الرجال ليتَّجروا لها لقاء أجر معلوم، وحين بلغها ما كان يتحلى به «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب» من كريم الشمائل، وحميد الفضائل، إذ كانوا يلقبونه بالصادق الأمين، قررت أن تستعين به في تجارتها، فأرسلت إليه، وأخبرته بما عزمت عليه، ثم اتفقت معه على الخروج مع غلام لها إلى الشام يدعى «ميسرة» في سِلْعَتِها، ثم يعود من الشام إليها ببضاعة أخرى تريدها، وبعد قفولهما أخبرها غلامها بأمر عجب، فقال لها: لقد مررنا بصومعة أحد الرهبان، وكان ثَمَّ شجرة قريبة من الصومعة، فنزل «محمد» ﷺ يتفيَّأ ظلالها، ولما اطَّلع الراهب، ورآه تحتها نادى عليَّ، فجئته، فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة؟ فقلت: رجل من قريش، فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي، ثم كنا إذا سرنا في الهاجرة واشتد الحر علينا، كنت أرى ملكين يُظِلَّانه من الشمس، وهو يسير على بعيره، وكانت «خديجة» تنصت بإمعان إلى حديث «ميسرة»، وبعد أن باعت ما جاءها من الشام، وجدت ربحها مضاعفاً، فَحَزمت أمرها، وقررت أن تخطبه لنفسها، لِمَا أراد الله بها من كرامتها. ثم أرسلت إلى «محمد» ﷺ، وأنبأته برغبتها في الزواج منه، وهي التي رفضت خطبة العديد من

زعماء قريش ووجهائها، بعد زواجها مرتين، وحين أخبر أعمامه بما قالته «خديجة» خرج معه عمه «حمزة بن عبد المطلب»، حتى دخلا على والدها «خويلد بن أسد» فخطبها له، وتم الزواج الميمون، وكان عمرها أربعين سنة، وعمر رسول الله ﷺ خمسة وعشرين عاماً.

وكانت قبل قد تزوجت مرتين: من «عتيق بن عائذ» المخزومي، ثم خلف عليها «أبو هالة؛ مالك بن نباش»[١].

وجاء في السيرة الحلبية: قال ﷺ: **«ما تزوجت شيئاً من نسائي ولا زوجت شيئاً من بناتي إلا بوحي جاءني به «جبريل» عليه الصلاة والسلام من ربي ﷻ»**[٢].

كان رسول الله ﷺ قد ولد يتيماً لأن والده «عبد الله بن عبد المطلب» قد توفي وأمه «آمنة بنت وهب» حامل به، وفي السادسة من عمره توفيت أمه «آمنة» فكَفِلَه جده «عبد المطلب»، وفي الثامنة حضرت «عبد المطلب» الوفاة، فعهد إلى ولده «أبي طالب» برعايته، ولما مات «عبد المطلب» تحول «محمد» ﷺ إلى بيت عمه «أبي طالب» ولم تَأْلُ «فاطمة بنت أسد» امرأة «أبي طالب» جهداً في تكريمه وإيثاره حتى على فِلْذاتِ أكبادها لِمَا رأت هي وزوجها «أبو طالب» من بركاته.

أنجبت «خديجة» لرسول الله ﷺ ذكرين: هما «القاسم» وبه كان يكنى رسول الله ﷺ، ثم «عبد الله» وقيل: إنه كان يلقب بالطيب والطاهر، وقد مات «القاسم» و«عبد الله» صغيرين قبل البعثة.

كما أهدت «خديجة» لرسول الله ﷺ أربعاً من الإناث هن: «زينب» و«رقية» و«أم كلثوم» و«فاطمة الزهراء»، وقد أدركن البعثة جميعاً، ثم أسلمن مع أمهن، رضي الله عنهن، ثم هاجرن بدونها، لأنها توفيت قبل الهجرة، وأمضت «خديجة» رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ خمسة عشر عاماً حيث بلغ الأربعين من عمره، ثم جاءه الوحي برسالة الإسلام.

فقد روى ابن هشام في سيرته، عن ابن إسحاق، فلما بلغ «محمد»

---

(١) أزواج النبي للصالحي (٥٣ ـ ٥٤).
(٢) السيرة الحلبية (٣/ ٤١٩).

رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وكان الله تبارك وتعالى، قد أخذ الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر له على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدَّقهم، فأدَّوْا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه، يقول الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عِمرَان، الآية: ٨١] أي: ثقل ما حَمَّلتكم من عهدي ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عِمرَان، الآية: ٨١]، فأخذ الله ميثاق النبيين جميعاً بالتصديق له، والنصر له ممن خالفه، وأدَّوْا ذلك إلى من آمن بهم، وصدَّقهم من أهل هذين الكتابين.

قال ابن إسحاق: فذكر الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها أنها حدثته، أن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح، قالت: وحبَّب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده[1].

قال ابن إسحاق: وحدثني وهب بن كيسان، قال: قال عبيد: فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر ـ أي: رمضان ـ من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به، إذا انصرف من جواره، الكعبة، قبل أن يدخل بيته؛ فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر ـ شهر ـ رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى حِرَاء، كما كان يخرج لجواره، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العباد بها، جاءه «جبريل» عليه السلام بأمر الله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: **فجاءني «جبريل»، وأنا نائم، بنمط ـ وعاء كالسَّفَط ـ**

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦).

من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ، قال: قلت: ما أقرأ، قال: فغتَّني ـ والغَتُّ: حبس النَّفَس ـ به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قال: قلت: ما أقرأ، قال: فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قال: قلت: ماذا أقرأ؟ قال: فغتَّني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قال: فقلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق، الآيات: ١-٥]، قال: فقرأتها، ثم انتهى، فانصرف عني وهببت من نومي، فكأنما كُتِبَت في قلبي كتاباً، قال: فخرجتُ حتى إذا كنتُ في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء، يقول: يا محمد! أنت رسول الله، وأنا «جبريل».

قال: فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا «جبريل» في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد! أنت رسول الله، وأنا «جبريل»، قال: فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، قال: فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي، وما أرجع ورائي، حتى بعثَتْ «خديجة» رُسُلَها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة، ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني.

وانصرفت راجعاً إلى أهلي، حتى أتيت «خديجة»، فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها ـ ملتصقاً ـ فقالت: يا أبا القاسم! أين كنت؟ فوالله! لقد بعثتُ رُسلي في طلبك حتى بلغوا مكة، ورجعوا لي، ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت: أبشر يابن عم! واثْبُتْ، فوالذي نفس «خديجة» بيده! إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة.

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى «ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي»، وهو ابن عمها، وكان «ورقة» قد تنصَّر، وقرأ الكتب، وسمع أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع، فقال «ورقة بن نوفل»: قدوس، قدوس، والذي نفس «ورقة» بيده، لئن كنت صدقتِني يا خديجة! لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي «موسى»، وإنه

لنبي هذه الأمة، فقولي له فَلْيَثْبُتْ، فرجعت «خديجة» إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته بقول «ورقة بن نوفل»، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف، صنع كما كان يصنع: بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه «ورقة بن نوفل»، وهو يطوف بالكعبة، فقال: يابن أخي! أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له «ورقة»: والذي نفسي بيده! إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء «موسى» ولَتُكَذَّبَنَّهْ ولَتُؤْذَيَنَّهْ ولَتُخْرَجَنَّهْ ولَتُقَاتَلَنَّهْ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأَنْصُرَنَّ اللهَ نصراً يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فَقَبَّلَ يافوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله[١].

وقد رغبت السيدة «خديجة» في أن تستوثق لرسول الله ﷺ أن الذي يأتيه مَلَكٌ لا شيطان، فطلبت من رسول الله ﷺ أن يخبرها بقدومه حين يأتيه.

قال ابن إسحاق: حدثني إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير: أنه حدث عن «خديجة» ﵂، أنها قالت لرسول الله ﷺ: أيْ ابنَ عم! أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم، قالت: فإذا جاءك فأخبرني به، فجاءه «جبريل» ﷺ كما كان يصنع، فقال رسول الله ﷺ لخديجة: **«يا خديجة! هذا «جبريل» قد جاءني»**، قالت: قم ابنَ عم! فاجلس على فخذي اليسرى، قال: فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: **«نعم»**، قالت: فتحوَّلْ فاجلس على فخذي اليمنى، قالت: فتحوَّلَ رسول الله ﷺ فجلس على فخذها اليمنى، فقالت: هل تراه؟ قال: **«نعم»**، قال: فتحسَّرت وألقت خِمَارَها، ورسول الله ﷺ جالس في حَجْرها، ثم قالت له: هل تراه؟ قال: **«لا»**، قالت: يابنَ عم! اثْبُتْ وأبشر، فوالله! إنه لَمَلَكٌ وما هذا بشيطان[٢].

وأخذت آيات التنزيل العزيز تنزل على رسول الله ﷺ تَتْرَى، وآمنت به «خديجة بنت خويلد» وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله ﷺ وصدَّق بما جاء منه، فخفَّف الله بذلك عن نبيه ﷺ لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رَدٍّ عليه، وتكذيب له، فيُحْزِنه ذلك إلَّا فَرَّجَ الله عنه بها

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٩).
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٣٠).

إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عليه، وتصدِّقه، وتُهَوِّن عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى.

وكانت «خديجة» رضي الله عنها ذات مناقب جَمَّة، ومن هذه المناقب ما رواه ابن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير، عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أن أبشر خديجة ببيت من قَصَب لا صَخَبَ فيه ولا نَصَب**»، قال ابن هشام: القَصَب (ههنا): اللؤلؤ المجوف[(١)].

وعن أبي زرعة: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**أتاني «جبريل»، فقال: يا رسول الله! هذه خديجة أتتك ومعها إناء فيه طعام وشراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها من ربها السلام ومني**»[(٢)].

وقال ابن هشام: وحدثني من أثق به (أن «جبريل» عليه السلام أتى رسول الله ﷺ فقال: أقرىء «خديجة» السلام من ربها، فقال رسول الله ﷺ: «**يا خديجة! هذا «جبريل» يقرئك السلام من ربك**»، فقالت «خديجة»: الله السلام، ومنه السلام، وعلى «جبريل» السلام).

وأخرج مسلم في صحيحه عن عائشة، قالت: ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة، وإني لم أدركها.

قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة**» قالت: فأغضبته يوماً، فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إني قد رزقت حبها**»[(٣)].

ثم فرضت على رسول الله ﷺ الصلاة، فقد روى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: «افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين كل صلاة، ثم إن الله تعالى أتمها في الحضر أربعاً، وأقرها في

---

(١) السيرة (١/ ٢٣١).
(٢) الإصابة (٤/ ٢٤٨١).
(٣) صحيح مسلم (٧٥/ ٢٤٣٥).

السفر على فرضها الأول، ركعتين». ثم جاء جبريل عليه السلام، فعلَّم رسول الله ﷺ كيفيتها، ثم عَلَّمها رسول الله ﷺ لخديجة رضي الله عنها.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم: أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ أتاه «جبريل»، وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين، فتوضأ «جبريل» عليه السلام ورسول الله ﷺ ينظر إليه ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى «جبريل» توضأ، ثم قام به «جبريل» فصلى به، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرف «جبريل» عليه السلام.

فجاء رسول الله ﷺ «خديجة»، فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه «جبريل»؛ فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ ثم صلى بها رسول الله ﷺ كما صلى به «جبريل»، فصلت بصلاته.

ثم أتى رسولَ الله ﷺ «جبريلُ» عليه السلام فعين له أوقات الصلاة الخمسة، وصلى برسول الله ﷺ الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح.

فقد روى ابن إسحاق، عن عتبة بن مسلم، عن نافع بن جبير بن مطعم، وكان نافع كثير الرواية عن ابن عباس، قال: لما افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أتاه «جبريل» عليه السلام فصلى به الظهر حين مالت الشمس، ثم صلى به العصر، حين كان ظله مثله، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفق، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر، ثم جاءه فصلى به الظهر من غدٍ حين كان ظله مثلَه، ثم به العصر حين كان ظله مثيله، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول، ثم صلى به الصبح مسفراً غير مشرق، ثم قال: يا محمد! الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس[1].

---

(١) السيرة (١/ ٢٣٢ ـ ٢٣٥).

قال السهيلي: وهذا الحديث لم يكن ينبغي أن يذكره في هذا الموضع، لأن أهل الصحيح متفقون على أن هذه القصة كانت في الغد من ليلة الإسراء، وذلك بعدما نبيء بخمسة أعوام، وقد قيل: إن الإسراء كان قبل الهجرة بعام ونصف، وقيل: بعام، فذكره ابن إسحاق في بدء نزول الوحي، وأول أحوال الصلاة.

قال ابن إسحاق: ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله ﷺ وصلى معه وصدَّق بما جاءه من الله تعالى: «علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم» رضوان الله وسلامه عليه، وهو يومئذ ابن عشر سنين[١].

وكان أول من أسلم من الموالي «زيد بن حارثة» رضي الله عنه. وأما من الرجال فكان «أبو بكر بن أبي قحافة» أول المسلمين، ثم توالى دخول الناس في الدين الحنيف، وفشا الإسلام وانتشر، فلله الحمد والمِنَّة.

وبدأ الإسلام سراً، واستمر على هذه الحال ثلاث سنين من المبعث، ثم أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحِجر، الآية: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء، الآيتان: ٢١٤، ٢١٥]، ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ [الحِجر، الآية: ٨٩].

لكن دعوة رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام لم تجد إلا آذاناً صماً وقلوباً غلفاً، وظلوا في غيهم وضلالهم سادرين، ولما ذكر رسول الله ﷺ آلهتهم وعابها أعظموا ذلك، وأنكروه، وأجمعوا خلافه وناصبوه العداوة والبغضاء، إلا من عصمه الله بالإسلام. ثم مشوا إلى عمه «أبي طالب» يشتكونه، فمنعه منهم، وقام دونه، ومضى رسول الله ﷺ لأمر الله يظهره ولا يرده شيء، ثم أتى وفد من أشراف قريش وأكابرهم إلى «أبي طالب»، وذكر ابن إسحاق أنهم قالوا له: يا أبا طالب! إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلَّل آباءنا، فإما أن تكفَّه عنا، وإما أن تخلِّيَ بينا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال لهم «أبو طالب» قولاً رفيقاً، وردهم ردًّا جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه، ثم شَرِيَ - اشتدَّ - الأمر بينه وبينهم، حتى تباعد الرجال وتضاغَنوا - تعادوا -، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها، فتذامروا فيه أي: حَضَّ بعضهم بعضاً -، وحَضَّ بعضم بعضاً عليه، ثم إنهم مشوا إلى «أبي طالب» مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب! إن لك سِنًّا وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم

(١) السيرة (١/ ٢٣٥).

تنهه عنا، وإنا والله! لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفَّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلِك أحد الفريقين، أو كما قالوا له، ثم انصرفوا عنه، فعظم على «أبي طالب» فراق قومه، وعداوتهم، ولم يَطِبْ نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه.

وأضاف ابن إسحاق: أن قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة، بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يابن أخي! إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فَأَبْقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق.

قال: فظَنَّ رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بَدَاء ـ يريد: ظهر له رأي ـ، وأنه خاذلُه ومُسْلِمُه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه.

قال: فقال رسول الله ﷺ: **«يا عم! والله! لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلِك فيه، ما تركته»**.

قال: ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى، ثم قام، فلما ولَّى ناداه «أبو طالب» فقال: أقبل يابن أخي!

قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يابن أخي! فقل ما أحببت، فوالله! لا أسلمك لشيء أبداً. وتابع ابن إسحاق:

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن «أبا طالب» قد أبى خذلانَ رسول الله ﷺ وإسلامَه وإجماعَه لفراقهم في ذلك وعداوتَهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له ـ فيما بلغني ـ يا أبا طالب! هذا «عُمَارة بن الوليد»، أنْهَدُ ـ أشد وأقوى ـ فتًى في قريش وأجملُه، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفَرَّق جماعة قومك، وسَفَّه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

قال: والله! لبئس ما تسومونني ـ تكلفونني ـ، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله! ما لا يكون أبداً.

قال: فقال «المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي»: والله! يا

أبا طالب! لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً، فقال «أبو طالب» للمطعم: والله! ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليَّ، فاصنع ما بدا لك، أو كما قال، فَحَقِبَ ـ اشتدَّ ـ الأمر، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وبَادَى بعضهم بعضاً[1].

وبدأت ـ حينئذ ـ قريش، حملتها الظالمة على أصحاب رسول الله ﷺ، وراحت تعذبهم وتفتن المستضعفين عن دينهم، وامتنع رسول الله ﷺ بعمه «أبي طالب».

ثم روى ابن إسحاق، عن يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه عروة بن الزبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يظهرون من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحِجْر فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سَفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفَرَّق جماعتنا، وسَبَّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا، فبينا هم في ذلك، إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مَرَّ بهم طائفاً بالبيت، فلما مَرَّ بهم غمزوه ـ طعنوا فيه ـ ببعض القول، قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، قال: ثم مضى، فلما مَرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، ثم مَرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف، ثم قال: «أتسمعون؟ يا معشر قريش! أما والذي نفسي بيده! لقد جئتكم بالذبح».

قال: فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك لَيَرْفَؤُه ـ أي: يهدئه ـ بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف، يا أبا القاسم! فوالله! ما كنت جهولاً.

قال: فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك، طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه

(١) السيرة (١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٤).

وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ: «**نعم، أنا الذي أقول ذلك**».

قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه، قال: فقام «أبو بكر» رضي الله عنه دونه وهو يبكي، ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط.

قال ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم: أن أشد ما لقي رسول الله ﷺ من قريش أنه خرج يوماً، فلم يلقه أحد من الناس إلا كذَّبه وآذاه، لا حر ولا عبد، فرجع رسول الله ﷺ إلى منزله، فتدثَّر من شدة ما أصابه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: الآيتان ١، ٢][(١)]. وكان وقوف «خديجة» إلى جانبه، يشد أزره، ويقويه.

ثم آن للمسلمين أن يتنفَّسوا الصعداء، حين هدى الله تعالى عم رسول الله ﷺ «حمزة بن عبد المطلب» فأعلن إسلامه على ملإ من قريش، متحدياً لكبير سفهائها «أبي جهل».

ولكن كيف حدث ذلك؟ وما الذي أفضى إليه؟ قال ابن إسحاق:

حدثني رجل من أسلم، كان واعية: أن «أبا جهل» مَرَّ برسول الله ﷺ عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، ومولاة لعبد الله بن جُدْعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة، في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه.

فعمد إلى نادٍ من قريش عند الكعبة، فجلس معهم، فلم يلبث «حمزة بن عبد المطلب» رضي الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه، راجعاً من قَنَصٍ له ـ صَيْد ـ، وكان صاحب قَنَص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قَنَصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يَمُرَّ على نادٍ من قريش إلا وقف وسلَّم وتحدَّث معهم، وكان أعزَّ فتى في قريش، وأشد شكيمة ـ قوي القلب ينتصر من الظلم ـ، فلما مَرَّ بالمولاة وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، قالت له: يا أبا

(١) السيرة (١/ ٢٧٣ ـ ٢٧٥).

عُمَارة! لو رأيت ما لقي ابن أخيك «محمد» ﷺ آنفاً من «أبي الحكم بن هشام»، وجده هٰهنا جالساً فآذاه وسبَّه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه «محمد» ﷺ.

فاحتمل «حمزةَ» الغضبُ، لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعِدًّا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه، رفع القوس فضربه بها فشَجَّه شَجَّة منكرة، ثم قال: أتشتمه؟ فأنا على دينه، أقول ما يقول، فرُدَّ ذلك عليَّ إن استطعت، فقامت رجال بني مخزوم إلى «حمزة» لينصروا «أبا جهل»، فقال «أبو جهل»: دعوا «أبا عُمَارة» فإني والله! قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحاً، وتم «حمزة» رضي الله عنه على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله.

فلما أسلم «حمزة» عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن «حمزة» سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

وزاد غير ابن إسحاق في إسلام «حمزة» أنه قال: لما احتملني الغضب، وقلت: أنا على قوله، أدركني الندم على فراق دين آبائي وقومي، وبت من الشك في أمر عظيم، لا أكتحل بنوم، ثم أتيت الكعبة، وتضرَّعت إلى الله سبحانه أن يشرح صدري للحق، ويذهب عني الريب، فما استتممت دعائي حتى زاح عني الباطل، وامتلأ قلبي يقيناً، فغدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما كان من أمري، فدعا لي بأن يثبتني الله، وقال «حمزة» حين أسلم أبياتاً، منها:

حَمِدْتُ اللهَ حين هدى فؤادي ... إلى الإسلام والدين الحنيفِ
لدين جاء من رب عزيز ... خبير بالعباد بهم لطيفِ
إذا تليت رسائله علينا ... تحدَّر دمع ذي اللب الحصيفِ
رسائل جاء أحمد من هداها ... بآيات مبينة الحروفِ[1]

واقترح مُحَكَّمُ قريش على قومه أن يلقى «محمداً» ﷺ ويكلمه فيما شَجَر بينه وبينهم، فقالوا له: اذهب إليه وكلِّمه.

(١) السيرة (١/ ٢٧٥، ٢٧٦).

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: حدثت أنَّ «عتبة بن ربيعة»، وكان سيداً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش! ألا أقوم إلى «محمد» ﷺ فأكلمه، وأعرض عليه أموراً، لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكفَّ عنا، وذلك حين أسلم «حمزة»، ورأوا أصحابَ رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى، يا أبا الوليد! قم إليه فكلِّمه.

فقام إليه «عتبة» حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يابن أخي! إنك منا حيث قد علمت من السِّطَةِ ـ الشرف ـ في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فَرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلَّك تقبل منها بعضها.

قال: فقال له رسول الله ﷺ: «**قل، يا أبا الوليد! أسمع**».

قال: يابن أخي! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شَرَفاً سَوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئْياً ـ ما يتراءى للإنسان من الجن ـ تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع ـ من يتبع الناس من الجن ـ على الرجل حتى يداوَى منه، أو كما قال له، حتى إذا فرغ «عتبة» ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: «**أقد فرغت؟ يا أبا الوليد!**»، قال: نعم، قال: «**فاستمع مني**»، قال: أفعل، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فُصِّلَت، الآيات: ١ ـ ٥]، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه «عتبة» أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: «**قد سمعتَ يا أبا الوليد! ما سمعتَ، فأنت وذاك**».

فقام «عتبة» إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم «أبو الوليد» بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم، قالوا: ما وراءك؟ يا أبا الوليد! قال: ورائي أني قد سمعت قولاً، والله! ما سمعت مثله قط، والله! ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش! أطيعوني واجعلوها بي، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعْتَزِلُوه، فوالله! ليكونَنَّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله! يا أبا الوليد! بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[1].

وكان رسول الله ﷺ قد زوَّج ابنته «زينب» من «أبي العاص بن الربيع» التاجر الصادق الأمين، وهو ابن خالتها «هالة بنت خويلد».

كما زوَّج ابنتيه «رقية» و«أم كلثوم» لعتبة وعتيبة ابني «أبي لهب» عم النبي ﷺ، وحين دعا رسول الله ﷺ قومه إلى عبادة الله، كان عمه «أبو لهب» وامرأته حمالة الحطب، على رأس من عاداه.

وبدا لزعماء قريش أن أشد الأمور إيذاء لمحمد ﷺ أن تُرَدَّ بناتُه عليه، ثم جاءوا «أبا العاص بن الربيع» وسألوه أن يفارق امرأته «زينب» على أن يزوجوه المرأة التي يختارها من قريش، وهالهم أن يرفض طلبهم حين قال لهم: ما أنا بمفارق صاحبتي لأي شيء، ولا أريد أية امرأة سواها.

أما «عتبة» و«عتيبة» فقد وافقا على فراق «رقية» و«أم كلثوم» قبل أن يدخلا بهما، واكتفى «عتبة» بطلاق «رقية»، وأما أخوه «عتيبة» فلم يكتف بطلاق «أم كلثوم» بل زاد على فعل أخيه حيث ذهب إلى رسول الله ﷺ، وعدا عليه وأسمعه ما يكره فدعا الله أن يسلط عليه كلباً من كلابه، فخرج مع أبيه في تجارة إلى الشام ولما نزلت القافلة لطلب الراحة ليلاً، جاء الأسد، وراح يتشمم الرجال، حتى إذا وصل إلى «عتيبة» لوى ذنبه، ثم ضرب به رأس «عتيبة» فشدخه، وعادت «رقية» و«أم كلثوم» إلى دار والديهما معززتين مكرمتين، كرامة لهما وهواناً لمن فارقاهما.

---

(١) السيرة (١/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨).

ثم جاء «عثمان بنَ عفان» إلى رسول الله ﷺ، خاطباً «رقية» فزوجه إياها، ولما أسرفت قريش في غيها، وتمادت في بغيها وتنكيلها بأصحاب رسول الله ﷺ أذن رسول الله ﷺ لهم بالهجرة إلى الحبشة.

قال ابن إسحاق: فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانهِ من الله، ومن عمه «أبي طالب»، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه**»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة؛ مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام.

وكان رسول الله ﷺ، وامرأته أم المؤمنين السيدة «خديجة» ﵂ ـ في وداع المهاجرين لأن بينهم حبة القلب وثمرة الفؤاد «رقية» وزوجها «عثمان»، أما حبس العبرات، فقد كان أحد المستحيلات، ولم يكن أحد ـ إلا الله ـ يعلم أن هذه آخر مرة تكحل بها «الطاهرة خديجة» عينيها بطلعة ابنتها الحبيبة «رقية»، وكذلك كان حال «رقية» التي لم يدر في خلدها أن وداعها لأمها الغالية لا لقاء بعده.

وانطلق المهاجرون إلى حيث وجههم رسول الله ﷺ، إلى الحبشة، حيث يحكمها «النجاشي» الملك العادل الذي لا يظلم على أرضه أحد، فراراً من طغيان قريش، وخوفاً من أن تفتنهم عن دينهم.

وكان احتفاء «النجاشي» بضيوفه المهاجرين كبيراً، وإكرامه لهم عظيماً، فكانوا في أحسن جوار، مع خير جار.

بيد أن حدثاً لم يكن في الحسبان، كَدَّر على المهاجرين حياتهم في الحبشة، حتى أوجسوا في أنفسهم خيفة، وكان الباعث على ذلك التكدير والخوف، أن قريشاً علمت أن المهاجرين قد باتوا في أمان، وأن «النجاشي» أحسن إليهم غاية الإحسان، فَسِيئَت وجوه كفارها، وضاقوا ذرعاً بذلك فأجمعوا أمرهم على إرسال وفد محمل بالهدايا له ولبطارقته، وكانت «الأدم» ـ الجلود ـ أحبَّ متاع مكة إليه، وأعجبه، وكلفت الوفد أن يطلب من «النجاشي» تسليمه

المهاجرين ليعود بهم إلى ديارهم، لأنهم فارقوا دين آبائهم، ودخلوا في دين ليس عليه قومهم، كما أن الدين الذي ابتدعوه غير دين الملك الذي لجأوا إليه، واختاروا جيرته، ولم تكن قريش تدري أنّ وفدها سيرتد خاسئاً مدحوراً.

ولما وصل وفد قريش إلى الحبشة، وكان يضم «عمرو بن العاص» و«عبد الله بن أبي ربيعة» وزع الهدايا على البطارقة وطلب منهم مساعدته عند الملك، وإقناعه لتسليم المهاجرين إلى الوفد للعودة بهم إلى ديارهم، ثم دخل الوفد على «النجاشي» وقدموا له الهدايا، وحين عرف سبب مقدمهم أبى «النجاشي» إجابة طلبهم حتى يسأل المهاجرين عما دعاهم إلى اللجوء إلى بلاده.

وحين مثل المهاجرون أمام الملك، تكلم خطيبهم «جعفر بن أبي طالب» ﷺ وقال: إن الجاهلية التي كنا نعيش في ظلماتها والفساد الذي كان يسود حياتنا في جميع مرافقها، والأصنام التي كنا عاكفين عليها وهي من أخشاب منجورة، وأحجار منحوتة صُمٌّ لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع، وكنا مقيمين على ذلك حتى بُعِث فينا نبي نعرف نسبه وصدقه وأمانته فدعانا إلى مكارم الأخلاق وعبادة الله وحده، ونبذ عبادة الأصنام، وترك الرذائل، فلما اتبعنا ما جاءنا به وآمنا بربنا الذي خلقنا، ثار علينا قومنا وظلمونا وقهرونا وضيقوا علينا وعذبونا، فلم نجد سبيلاً إلا اللجوء إلى ديارك، والعيش في جوارك.

ولما سمع «النجاشي» ذلك أمر برد الهدايا إلى الوفد القرشي، وطرده شر طردة، ثم قال للمهاجرين: أنتم آمنون، ومن سبكم غرم، وما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم.

ورجع الوفد القرشي إلى مكة خاسئاً مدحوراً، وقد حاق به مكره السيئ، بَعْدَ أن راموا إفساد العيش الهانيء للمهاجرين، فخاب سعيهم وعادوا خائبين.

ولم تكد قريش تصحو من صدمتها بإسلام «حمزة بن عبد المطلب» حتى مُنِيَت بصدمة أشد وأنكى، وذلك حين أسلم «عمر بن الخطاب» ﷺ.

قال عبد الله بن مسعود: «إن إسلام «عمر» كان فتحاً وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم «عمر»، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه».

وبإسلام «عمر» خرج الإسلام من مكمنه، وانتقل من السر إلى العلانية، وأخذ الناس يسارعون إلى الدخول فيه، وقويت شوكته، وعلت رايته.

ولندع «عمر بن الخطاب» ﵁ يروي لنا حديث إسلامه كما رواه ابن سنجر، قال: حدثنا أبو المغيرة، قال: حدثنا صفوان بن عمرو، قال: حدثني شريح بن عبيد، قال: قال «عمر بن الخطاب»: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة «الحاقة» فجعلت أتعجب من تأليف القرآن، قال: قلت: هذا والله! شاعر كما قالت قريش، فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحَآقَّة: الآيتان ٤٠، ٤١] ، قال: قلت: كاهن علم ما في نفسي، فقال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحَآقَّة، الآية: ٤٢] ، إلى آخر السورة، قال: فوقع الإسلام في قلبي كلَّ موقع، ويذكرون أن «عمر» قال حين أسلم:

الحمد لله ذي المن الذي وجبت ... له علينا أيادٍ ما لها غِيَرُ
وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا ... صدق الحديث نبي عنده الخبرُ
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى ... ربي عشية قالوا: قد صبا عمرُ
وقد ندمت على ما كان من زللٍ ... بظلمها حين تتلى عندها السورُ
لما دعت ربها ذا العرش جاهدة ... والدمع من عينها عجلان يبتدرُ
أيقنت أن الذي تدعوه خالقها ... فكاد تسبقني من عبرةٍ درُرُ
فقلت أشهد أن الله خالقنا ... وأن أحمد فينا اليوم مشتهرُ
نبي صدقٍ أتى بالحق من ثقةٍ ... وافي الأمانة ما في عوده خَوَرُ[1]

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الرحمٰن بن الحارث، عن بعض «آل عمر»، أو بعض أهله، قال: قال «عمر»: لما أسلمت تلك الليلة، تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة حتى آتيه فأخبره أني قد أسلمت، قال: قلت: أبو جهل ـ وكان عمر لحنتمة بنت هشام بن المغيرة ـ قال: فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه، قال: فخرج إليَّ «أبو جهل»، فقال: مرحباً وأهلاً بابن أختي، ما جاء بك» قال: جئتُ لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله «محمد» ﷺ،

(١) انظر الروض الأنف.

وصدقت بما جاء به، قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قَبَّحك الله، وقَبَّح ما جئت به[١].

وكانت قريش في كل يوم تبتدع لوناً جديداً، فيه إساءة للإسلام، وعَنَتٌ أشد لأتباع الدين الحنيف، وكان آخر ما هداها إليه شِرَارُها كتابة صحيفة ظالمة أعقبها حصار غاشم دام ثلاث سنوات، فما الذي جاء في تلك الصحيفة؟

قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً، وأن «النجاشي» قد منع من لجأ إليه منهم، وأن «عمر» قد أسلم، فكان هو و«حمزة بن عبد المطلب» مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم، وبني المطلب على ألَّا يُنْكِحُوا إليهم، ولا يُنْكِحُوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علَّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة «منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي».

قال ابن هشام: ويقال: «النضر بن الحارث» فدعا عليه رسول الله ﷺ فَشُلَّ بعض أصابعه.

قال ابن إسحاق: فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى «أبي طالب بن عبد المطلب»، فدخلوا معه في شعبه، واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم «أبو لهب بن عبد العزى بن عبد المطلب» إلى قريش فظاهرهم.

ثم إنه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب نفر من قريش، ولم يُبلِ فيها أحد أحسن من بلاء «هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن نصر بن جديمة بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤي»، وذلك أنه كان ابن أخي فضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، وكان «هشام» لبني هاشم واصلاً، وكان ذا شرف في قومه، فكان فيما بلغني يأتي

(١) السيرة (١/ ٣٢٤، ٣٢٥).

بالبعير، وبنو هاشم وبنو المطَّلب في الشعب ليلاً قد أوقره طعاماً، حتى إذا أقبل به فمَ الشعب، خلع خِطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره بُزًّا، فيفعل به مثل ذلك.

ثم إنه مشى إلى «زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم»، وكانت أمه «عاتكة بنت عبد المطلب» فقال: يا زهير! أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت لا يُبَاعون ولا يُبْتاع منهم، ولا يَنْكِحون ولا يُنْكَحْ إليهم، أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال «أبي الحكم بن هشام» ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبداً، قال: ويحك، يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله! لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها؛ قال: قد وجدت رجلاً، قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال له زهير: ابغنا رجلاً ثالثاً، فذهب إلى «المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف» فقال له: يا مطعم! أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه؟ أما والله! لئن أمكنتموهم من هذه لتجدُنَّهم إليها منكم سراعاً.

قال: ويحك، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانياً، قال: من هو؟ قال: أنا، قال: ابغنا ثالثاً، قال: قد فعلتُ، قال: من هو؟ قال: «زهير بن أبي أمية»، قال: ابغنا رابعاً.

فذهب إلى «البَخْتَري بن هشام» فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: «زهير بن أبي أمية»، و«المطعم بن عدي» وأنا معك، قال: ابغنا خامساً.

فذهب إلى «زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد» فكلمه، وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سَمَّى له القوم. فاتعدوا خَطْمَ ـ مُقَدَّم ـ الحَجُون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك، فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها.

وقال «زهير»: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا «زهير بن أبي أمية» عليه حُلَّة، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على

الناس، فقال: يا أهل مكة! أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يُباعون ولا يُباع منهم، والله! لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال «أبو جهل»، وكان في ناحية المسجد: كذبت، والله! لا تُشَق، قال «زمعة بن الأسود»: أنت والله! أكذب، ما رضينا كتابَها حيث كتبت، قال «أبو البَخْتَري»: صدق «زمعة»، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نُقِرُّ بِهِ.

قال «المطعم بن عدي»: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها.

قال «هشام بن عمرو» نحواً من ذلك، قال «أبو جهل»: هذا أمر قضي بليل تُشُوورَ فيه بغير هذا المكان، قال: و«أبو طالب» جالس في ناحية المسجد، فقام «المطعم» إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها، إلا «باسمك اللهم!»، وكان كاتب الصحيفة «منصور بن عكرمة»، فشُلَّت يده، فيما يزعمون.

قال ابن هشام: وقد ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: «**يا عم! إن ربي الله قد سلَّط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان**، فقال: أربُّك أخبرك بهذا؟ قال: **نعم**، قال: فوالله! ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش، فقال: يا معشر قريش! إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا؛ فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ فزادهم ذلك شراً، فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا[1].

وانتهى الحصار الظالم، وخرج الناس منه مهدودين منهكين بسبب الجوع والقهر اللذين عانيا منهما خلاله. وكان «أبو طالب» عم رسول الله ﷺ أول من سقط بين براثن المرضى: وقد تقدمت به السِّنُّ، وكان رسول الله ﷺ حريصاً على أن يسمع منه كلمة التوحيد، لكن أبى «أبو طالب» أن يُقِرَّ بها عين ابن أخيه.

---

(١) السيرة (١/ ٣٢٥، ٣٤٧).

وقال العلامة «الآلوسي» في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة، الآية: ١١٣] أن الآية على الصحيح نزلت في «أبي طالب»، فقد أخرج أحمد، وابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل» وآخرون، عن المسيب بن حزن، قال: لما حضرت «أبا طالب» الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده «أبو جهل»، و«عبد الله بن أبي أمية» فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**أي عم! قل: لا إله إلا الله، أحاجُّ لك بها عند الله**»، فقال «أبو جهل» و«عبد الله بن أمية»: يا أبا طالب! أترغب عن ملة «عبد المطلب»؟ فجعل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، و«أبا جهل» و«عبد الله» يعاودانه بتلك المقالة، فقال «أبو طالب» آخر ما كلَّمهم: هو على ملة «عبد المطلب» وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك**»، فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية[1].

ومن يأبى أن يقول: لا إله إلا الله إلا من كان من الكافرين؟

ثم قال «الآلوسي» رحمه الله تعالى: وأخرج أبو سهل السري بن سهل، من طريق عبد القدوس عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص، الآية: ٥٦] إلخ، نزلت في «أبي طالب»، ألحَّ عليه النبي ﷺ أن يسلم فأبى، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقد روى نزولها فيه عنه أيضاً ابن مردويه[2].

وصحيح أن «أبا طالب» حَدَب على رسول الله ﷺ، وكفله بعد وفاة جده «عبد المطلب» ومنعه من إيذاء قريش بعد مبعثه، مما لا سبيل إلى إنكاره، إلا أن الإقرار بوحدانية الله بالقلب واللسان أسمى من ذلك كله، وكلمة التوحيد أرجح في الميزان من كل ما عداها، فَـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء، الآية: ٤٨]، وروى الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، سمعت ناجية بن كعب يقول:

---

(١) روح المعاني (١١/ ٣٢، ٣٣).
(٢) روح المعاني (٢٠/ ٩٦، ٩٧).

سمعت علياً يقول: لما توفي أبي أتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن عمك قد توفي، فقال: «**اذهب فَوَارِه**» فقلت: إنه مات مشركاً، فقال: «**اذهب فَوَارِه، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتي**» ففعلت فأتيته، فأمرني أن أغتسل.

وعن أبي إسحاق، عن ناجية، عن علي: لما مات «أبو طالب» قلت: يا رسول الله! إن عمك الشيخ الضالَّ قد مات فمن يواريه؟ قال: «**اذهب فَوَارِ أباك، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني**» فأتيته فأمرني فاغتسلت، ثم دعا لي بدعوات ما يسرني أن لي بهن ما على الأرض من شيء.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**أهون أهل النار عذاباً «أبو طالب» متنعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه**».

وفي مغازي يونس بن بكير: «**يغلي منهما دماغه حتى يسيل على قدميه**»، ذكره السهيلي.

وعن العباس بن عبد المطلب أنه قال: قلت للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال: «**هو في ضحضاح** ـ مكان قريب من القعر ـ **من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل**» رواه مسلم في صحيحه من طرق[1].

ولم يكد رسول الله ﷺ يخرج من حزنه على رحيل «أبي طالب» النصير، حتى فجع بفقد أصدق وزير، إنها الزوج والأم والحبيبة التي ألقت بنفسها ومالها بين يديه، وعوَّضته عن عطف وحنان أبويه، ووقفت حياتها على حمل السعادة إليه، وشدت أزره، وشحذت عزيمته منذ اللحظة الأولى التي حُمِّلَ فيها أعباء الرسالة، وقالت له: أبشر، فوالله! لا يخزيك الله أبداً، ووالله! إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكَلَّ ـ أي: الضعيف ـ، وتُقْري الضيف، وتعين على نوائب الدهر، فأي امرأة عظيمة كانت؟

لقد ذهبت «خديجة» مشيعة بأسخن العبرات، وأطيب الدعوات، من فخر الكائنات، ﷺ، وأطهر البنات، رضي الله عنهن، إلا أن «رقيَّة» التي كانت

(١) البداية والنهاية (٣/ ١٣٦).

مهاجرة مع زوجها في الحبشة لم تستطع وداعها، وترك ذلك في قلب الأم والبنت جرحاً لا يندمل.

رحلت «خديجة» الطاهرة، ولكن ذكرياتها لم تَبْرَحْ خَلَدَ الوفي الأكرم، والحبيب الأعظم ﷺ، وكفى دليلاً على شدة حبه لها ـ وهي الجديرة بهذا الحب ـ أنه لم يتزوج في حياتها سواها، وقد تجلَّى وفاؤه لها بإكرام صديقاتها والإحسان إلى صواحبها بعد غيابها.

والحق أن فقد «أبي طالب» النصير، ورحيل «خديجة» أصدق وزير، بعده بزمن يسير، ثقلا على كاهل البشير النذير، ولكن صبَّره الله تعالى فكان خير ظهير، وسمي ذلك العام عام الحزن، لقد رحلت «خديجة» ﵂ قبل حبيبها، لتكون في استقباله في بيت القصب الذي وعدها الله به، وجاء به «جبريل» ﵇ مبشراً، فما أحيلى ساعة يلتقي الصادق الأمين، بخديجة الحبيبة أم المؤمنين، في المكان الذي آثرهما به رب العالمين! وعن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، عن علي أنه سمعه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خير نسائها خديجة بنت خويلد، وخير نسائها مريم بنت عمران**»[1].

واختلف العلماء، في أفضل النساء، هل هي «فاطمة الزهراء» أم أمها «خديجة» أم «عائشة بنت أبي بكر» رضي الله عنهن؟

فقال قوم: إن «خديجة» أفضل من «عائشة» لأن «جبريل» ﵇ أقرأها السلام من ربها ومنه، أما «عائشة» فقد أقرأها «جبريل» السلام منه.

وقال آخرون: إن «عائشة» أفضل النساء قاطبة لأنها أكثرهن علماً، ولقوله ﷺ: «**خذوا ثلثي دينكم عن الحميراء**» ولقوله ﷺ: «**فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام**»، وبأن «عائشة» يوم القيامة في الجنة مع زوجها رسول الله ﷺ و«فاطمة» يومئذ مع زوجها «علي» كرم الله وجهه، وهذا الاستدلال ليس بنص على أفضلية «الحميراء» على «الزَّهراء» ﵂.

وأما من قال بأفضلية «فاطمة» فلقوله ﷺ: «**فإنما ابنتي بَضْعَة مني، يريبني**

(١) الإصابة (٤/ ٢٤٨١).

ما رابها ويؤذيني ما آذاها»، وقد ذكر «الآلوسي» في «روح المعاني» بعد بيان حجج كل فريق، فقال: وبعد هذا كله الذي يدور في خَلَدي، أن أفضل النساء «فاطمة»، ثم أمها، ثم «عائشة» بل لو قال قائل: إن سائر بنات النبي ﷺ أفضل من «عائشة» لا أرى عليه بأساً؛ وعندي بين «مريم» و«فاطمة» توقف نظراً للأفضلية المطلقة، وأما بالنظر إلى الحيثية فقد علمت ما أميل إليه.

وقد سئل الإمام «السبكي» عن هذه المسألة فقال: الذي نختاره وندين الله تعالى به أن «فاطمة بنت محمد» ﷺ أفضل، ثم أمها، ثم «عائشة» ووافقه في ذلك «البلقيني»، وقد صحح «ابن العماد» أن «خديجة» أيضاً أفضل من «عائشة» لما ثبت أنه عليه الصلاة والسلام قال لعائشة حين قالت: قد رزقك الله تعالى خيراً منها، فقال لها: «**لا والله! ما رزقني الله تعالى خيراً منها، آمنت بي حين كذبني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس**»[1]، وفي رواية: «**وزرقني الله ﷻ ولدها إذ حرمني أولاد النساء**».

وبعد، فالله أعلم بخلقه، وأدرى بمن هو مفضَّل عنده، والأفضل من فضَّله الله تعالى، ولعل بَضْعَةَ مصطفاه، آثر عند الله!. ولو طلب إليَّ أن أنعت «أم المؤمنين» بكلمة واحدة لقلت: إنها «**خديجة الخير**»، فهي خير النساء، وخير الأزواج، وخير الأمهات، وخير أسوة للمؤمنين والمؤمنات، تغمَّدها الله بسحائب رحمته، ونَوَّلها أشهى ما في جنته.

---

(١) انظر روح المعاني (٣/ ١٥٥ ـ ١٥٦).